

سماحة اية اٰ السيد "ابو عدنان" بغداد مدينة السلام وحاضرة العلم والأدب في عصرها الذهبي

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على أشرف أنبيائه ورسله حبيب الله العالمين أبي القاسم محمد،
وآلـه الطاهرين. ثم اللهم عن الداء المؤبد على أعدائهم أعداء الدين.

لَمْسَانِي ~ بَفْقَهُوا قَوْلَمْبَ([1]).

اللهم وفقنا للعلم والعمل الصالح، واجعل نيتنا خالصةً لوجهك الكريم، يا رب العالمين.

في الحديث عن الإمام الصادق (ع) : «أثقلُ ما يوضعُ في الميزان يومَ القيمةِ الصلاةُ علىَ مُحَمَّدٍ وعلىَ أهْلِ بَيْتِهِ» ([2]).

بغداد مدينة السلام:

كان الكلام قبل ما يربو على شهر من الزمن حول المواقع الهامة التي احتضنت بين جنباتها المقار^٣ العلمية الكبرى، كالجوزات والجواعع والمدارس. وانتهى بنا المقام عند بغداد، مدينة السلام، المدينة التي أخذت رشدتها في العصر العباسي، وتقدمت على سائر البلدان من حولها في مسارات العلم، والمستنصرية شاهد^٤ واضح وبين على ما كان عليه الوضع في تلك المدينة من تقدم علمي ترتب^٥ عليه ارتقاء^٦ حضاري من نوع خاص. وقد أعطى الاستقرار السياسي والأمني في بغداد مساحةً كافية لإحداث حالة التطور واستتباع النقلة الكبرى في وسط الحواضر الإسلامية.

وهذا التطور لم يقف عند حدٍ من معين من فنون العلم وضروبه، بل أخذ الكثير من العناوين، واندفع وراءها الأعلام حتى أثبتوا لهم قدماً راسخة في كل لون من تلك الألوان. فالجانب العلمي بشقّيه، الدين والدني، أو الأكاديمي – كما يُعبّر عنه اليوم – فهنا لك دراسات في مسارات الدين، في العقيدة وعلم الكلام والحديث والرجال والأصول والفقه والتفسير وغيرها. وهنالك دراسات في المسار

المدنى، كالاجتماع والطبيعتيات والهندسة والجبر والفلك والتنجيم وأمثالها.

وهنالك دراسات أخرى في الجانب الأدبي بجميع تفريعاته، من النظم والنشر والنقد والجمع والتأليف وغير ذلك. وكذلك الجانب الفنى، ويعنى الفنون الجميلة المعروفة اليوم، فهي اختصاص قديم لم يُستحدث اليوم، بل كانت بغداد قبل اثنى عشر قرناً من الزمان تعيش التخصص في هذا الجانب. فلماذا أغلق هذا التخصص؟ وما هي الآثار السلبية التي ترتب على تلك الحالة؟ هذا ما يطول فيه الحديث.

إن إبداع الإنسان العربي، ثم المسلم بعد الفتوحات الكبرى، أخذ المشهد الفنى في داخل بغداد إلى آفاق واسعة. والكثيرون اليوم ممن يقومون بتقديم أطروحات الماجستير والدكتوراه، يأخذون هذا الجانب بنظر الاعتبار. والإنسان العربي جميل بطبيعه، ثم جاء الإسلام ليضع اللمسات الأخيرة على جماليته. وأعني بالجمال هنا جمال الروح والطبع والتكون.

ثم حصلت النهضة الفكرية في بغداد، التي مدت البساط أمام الفاتحين، ولو كان الفاتح وقتها لا يتمتع بحالة من الانفتاح الفكري، لما تسنى لهم أن يطرقوا أبواب أمم متقدمة في حضارتها، ونصوص التاريخ تؤكد ذلك وتوثقه.

والمسار الفكري بجميع مخرجاً ته، سواء كان مؤمّلاً له دينياً من الكتاب والسنة، أو كان مستحدثاً من خلال تلاقح الأفكار مع الأمم من وراء ذلك. وبالنتيجة كانت بغداد مهيأة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، مهيأة في الطرف الزماني والمكاني ومن حيث الاستقرار العام الذي كان يسود المشهد.

ولبغداد تفريعات كثيرة في أكثر من مدينة، وكانت الكوفة واحداً من أهم الروافد التي ساعدت في تسريع دوران عجلة النقلة في دار السلام في الجانب العلمي، وهذا ما يشير إليه كثير من كتب في تاريخ الكوفة في تلك المرحلة، ولو لم تضع يدك - أيها المؤمن - إلا على شاهد واحدٍ منها لكتفى، لأنّ وهي الفترة التي عاشها الإمام الصادق (ع).

لقد تعاالت بغداد آنذاك على مسارين: النظرة السياسية الثاقبة، والنظرة الدينية، أما السياسية فيحكمها الطرف، ولها رجالاتها وقُرّاؤها، الذين يشخّصون ما لها وما عليها. أما الجانب الديني، فكانت بغداد العاصمة لا تعنى كثيراً بالتشدد والتزمت الذي يحدث حالة من الانغلاق، ثم الاندفاع الذي يتحول إلى قالب إرها بي صغير، ثم ما يلبث أن يأخذ مسارات بعيدة في أكثر من مكان.

كانت (دار السلام) تحمل عنوان (السلام) اسمًا على مسمى، وعنوانًا على معنون في الخارج، وكانت الحكومة وقتها تمدّ بساطها، وتُباعد ما بين الأطناب، فكانت الخيمة البغدادية (دار السلام) تستوعب جميع ألوان الطيف، فلم يكن فيها إلا ما يمكن أن يثبت الإنسان نفسه فيه، من خلال عطائه العلمي والفكري والفنوي والأدبي، كما أشرنا في أول الكلام.

وأخشى أن يقول قائل: إنك ذهبت بعيداً في ذلك، فأقول: سوف أضع هذه الملاحظة بين أيديكم، فأقول: إذا أردنا أن نقرأ التاريخ - أيها الأحبة - فعلينا أن نتخلّى عن كثير من موجبات الضغط علينا، جراء الموروث الذي عشناه، وإن لم نستطع أن نعيش مع أنفسنا، ناهيك عن أن نعيش مع الآخر، فإذا كنتُ أطلق من خلال تلك المواقف، وذلك الموروث الثقيل جداً، فلن أستطيع الانفتاح على نفسي، كي أتيح الفرصة لنفسي للانفتاح على الآخر.

الانفتاح على الآخر من موجبات الرقي:

أيها الأحبة: في زماننا هذا لا يمكن لأحد أن يلغى أحداً آخر، مهما كان ذلك الآخر، فرداً أو جماعة أو حزباً أو تكتلاً أو منظمة أو دولة أو غير ذلك. عليك أن تحسن التعامل مع المقابل بما لديك من آليات دافعها الرغبة في الوصول للحقيقة، ومناخها قبول الآخر، فإن اجتمع هذا مع ذاك رشدت الأمة وتقدمت وأصبحت أمة واعية لا تعرف جنحة واحدة من جنبات الإسقاط والتسيط.

fmوجبات الرقي للنفس البشرية كثيرة، وذلك لمن أراد أن يرتقي ويقطع المسافات ويلحق كما أراد به، ومنها:

1 - عدم النقص في جوهر الروح التي بين جنبي الإنسان: وهذه يمكن أن نقف عند أبعادها في حدها الأول. فعندما أكون في مرحلة الطفولة فلا أحمل سوى الصحفة البيضاء، وهي عبارة عن مرآة عاكسة عن روح في داخلي، فهي روح شفافة صافية قابلة لانطباع كل شيء عليها دون تصنيف، وتقبل هذا وذاك، وتنتظر الوافد ولو بعد حين. هكذا هي الروح السامة الراقية التي ليس فيها نقص في مبدئها الأول.

2 - أن تُجرِّدَ النفس من العوالق المادية والكدورات العارضة عليها: وهذا العامل مهم جداً، وأهم من سابقه، فربما ليس لنا في الأول حولٌ ولا طَوْلٌ في التقديم والتأخير، وفي الشدة والضعف، والتركيب والتبسيط، ولكن في الثاني يمكن أن نطبع بصمتنا وأن نأخذ بأنفسنا حيث أردنا لها أن تنتهي إليه من حيث المقام.

ونعني بالكدورات ما هو موصوف منها بصفة الخبيث، فبعض الكدورات غير موصوفة بصفة الخبيث، وإن كانت يمكن أن تتحول بمرور الزمن إلى ما يتمتع بتلك الصفة، فهي أشبه بالورم الذي ربما يكون حميماً في أوله، لكنه يتحول فيما بعد إلى ورم خبيث، فتنتهي النفس بموجبها إلى نهاية مُرديّة وسقوط في الحضيض. فعندما يُكتشف ورم من الأورام، تبدأ مرحلة التّشخيص أولاً، هل هو حميد أو خبيث؟ ولكن ما يلبت بعد فترة إلا ويكون الإنسان رهينة لذلك الداء الخطير الفتاك، الذي يمسك به من جميع مفاصله. فالنفس الإنسانية معرضة للسرطانة أكثر وأسرع من تعرض الجسم لذلك. ولكن الناس يهربون لما يصيب الجسم من خطر السرطنة ولا يلتقطون لما يتعلق بالنفس والروح، وهو الأشد خطورة وأكثر فتكاً.

فالكدورات هي الذنوب والمعاصي، سواء كانت من الصغار التي تم الإصرار عليها، أم الكبائر، وإن حدثت عرضاً، وبالنتيجة ترك أثراً وخدشاً في النفس البشرية، ومن السهل أن تُحدث الخدش ولكن ليس من السهل إصلاحه. كما هو الحال تماماً في زيادة وزن الجسم، فمن السهل أن يرفع الإنسان من وزنه، ولكنه عندما يحاول أن ينقص من الوزن قليلاً يحتاج إلى فترة طويلة من الزمن مع برامج خاصة، وهكذا الحال في الجانب الروحي، وهو ما يدركه العارفون وأصحاب السلوك.

3 - التوجه صوب المطلق وهو إله سبحانه وتعالى: فعندما نعيش الخشية من إله تعالى في أقوالنا وأفعالنا فسوف ترتاح نفوسنا وتستقر، أما إذ غفلنا عن دائرة اللطف للمطلق، سنقع في أكثر من شراك وشرائط، فإذا انشغلت بشيء خارج دائرة المطلق فاعلم أنك غادرتها، ويكفيك ملامة لنفسك أنك تحرك خارجها، فالبقاء في دائرة المطلق يعني عدم الكذب وعدم الحسد وعدم البغض وعدم قطيعة الرحم، والارتباط بآله، وبمحمد وآل محمد.

4 - إلغاء رداء العصبية المقيمة: كالعصبية للأسرة والقبيلة، فلا يرى أن أحداً له حظٌ من الخير سوى قبيلته وأسرته. أو أن يكون متحزباً، فيرى أن جميع الأحزاب سوداء مظلمة، ومستهلكة في الظلم والظلم، ولا يرى في حزبه إلا عنوان السلامة والصفاء والمحبة والسلام. أو التعصب للذّهْنُ، أو التعصب الرياضي، أو غيره.

والعجب هنا أن الكثير منا يتغنى بالشخص ما، حال أن ذلك الشخص لا يعنيه من تعصب له شيئاً، لا من قريب ولا من بعيد. فتراه يتغنى بالنادي، حال أن النادي في عالم وهو في عالم آخر. أو لحزب وتجده، في حين أن ذلك الحزب والتوجه لا يمنجه أي اعتبار. وهكذا التعصب لشخصية أو عالم أو أديب أو ممثل أو خطيب أو غير ذلك. فهو لأ الذين تتغنى لهم لا يعيشون عالمك، إنما عاشوا عوالمهم، ولو لم يعشوا عوالمهم لما تقدمو.

بل تسوء الحال كثيراً حتى يكون التعصب للطالم، فيستوي عنده الطالم والمظلوم، والقاتل والمقتول، والمعتدى والمعتدى عليه. أما أسباب ذلك ودوافعه التي تقف وراءه فهي كثيرة، وعلى المتعمض أن يبحث بنفسه عنها، إلا أنها في الغالب من الأمور البسيطة في داخلي وداخلك، لكنها تمثل قوة بقوة العالم من حولها، لذا يستطيع الإنسان من خلالها أن يتقلب في جميع المسارات والمربيات من حوله.

رفع الحجب مهم، وأولها حجاب الأنما والعصبية، إذ يرى من يستتر خلف هذا الحجاب أنه الناجي الوحيد من الطوفان، والآخرون هلك، والحال أننا جمِيعاً في سفينة واحدة، ولا يمكن لأحد أن يُحدث فيها خللاً، ومن فعل ذلك هلك وأهلك، ولا يمكن أن تصل السفينة لساحل النجاة إلا بالحفاظ عليها من الجميع.

5 - لملمة المقدمات والرغبة في الوصول إلى الهدف المنشود لكل إنسانٍ منا وفق الشروط المستوجبة لذلك: وهذا يخص الشباب اليوم بالدرجة الأولى. ورب قائل يقول: ولماذا شباب اليوم فقط؟ أقول: من كان في عمرى وعمر أمثالى من الأجيال، قد أخذ سهمه من الحياة، أما الجيل القادم ففي بيته أمانة كبيرة، حتى نحن أصبحنا أمانة في يده، فهو الذي يحفظ حياتنا وأفكارنا ومبادئنا وقيمـنا، وهو الذي يستطيع أن يحافظ على مكونـنا في جانـبه المـعـرـفـيـ والمـعـرـفـيـ. فـهـذـا الشـابـ تـعـلـقـ بـهـ الـحـيـاـةـ فـيـ الـمـسـتـقـبـ، وـصـفـارـ الـقـوـمـ الـيـوـمـ كـبـارـ فـيـ الـغـدـ، وـلـذـلـكـ يـتـوـجـهـ خـطاـبـ يـلـهـذـهـ الشـرـيـحةـ.

والمفتاح للملمة المقدمات يكمن في عقولكم، فلا بد من تحريك العقل وإخراجه من حالة السبات، ولو بإثارة نظرية قديمة لغيريتها وتمحيصها، فـماـ منـ نـظـرـيـةـ وـصـلـتـ مـنـ مـرـبـعـ إـلـىـ مـرـبـعـ إـلـاـ وـهـيـ تـحـمـلـ فـيـ دـاـخـلـهـ ماـ يـؤـمـّـنـ لـهـ اـلـنـتـقـالـ إـلـىـ مـرـبـعـ آـخـرـ، فـإـنـ جـمـّـدـ عـقـلـكـ بـقـيـتـ رـهـنـ الـمـرـبـعـ الـأـوـلـ.

فالعالم الغربي متقدم علينا في الجانب التكنولوجي، ومن أسباب تقدمه إعادة النظر في النظريات العلمية السابقة وتمحيصها ودراستها. أما في الجانب السلوكي فلا، ولا بد أن أبين في يوم ما هذا الأمر، لأن الصورة أصبحت اليوم ملحة لبيان أن هذه الحالة من التزويق والترويج لحال الشباب والشابات في العالم الغربي لا أساس لها. فـفيـ أـمـ الحـضـارـاتـ الـمـتـقـدـمـةـ الـيـوـمـ وـهـيـ أـمـريـكاـ، تمـ التـوـقـيـعـ عـلـىـ مـئـةـ وـثـلـاثـ وـخـمـسـينـ مـعـاهـدـةـ معـ الـهـنـودـ الـحـمـرـ، عـلـىـ أـنـ لـاـ تـعـتـدـ عـلـىـ أـمـواـلـهـمـ وـلـاـ مـمـتـلـكـاـتـهـمـ، لـكـنـهـاـ دـاـسـتـهـاـ تـحـتـ أـقـدـامـهـاـ، وـقـتـلـتـ الـمـلـاـيـنـ مـنـ الـهـنـودـ الـحـمـرـ فـيـ تـصـفـيـةـ عـرـقـيـةـ مـرـوـعـةـ. هـذـهـ هـيـ الـحـضـارـةـ الـتـيـ تـسـرـقـ عـقـولـ وـقـلـوبـ الـكـثـيرـ مـنـ شـبـابـنـاـ الـيـوـمـ.

فـإـذـاـ كـانـتـ دـارـ السـلـامـ قـفـزـتـ بـإـلـإـنـسـانـ، وـوـصـلـتـ مـنـ خـلـالـ هـذـاـ الـمـكـونـ الـذـيـ كـانـ يـعـيـشـ إـلـىـ حـالـةـ إـلـبـادـاعـ وـالـاخـتـرـاءـاتـ الـتـيـ أـحـدـثـتـ النـقـلـةـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ جـوـانـبـ الـحـيـاـةـ آـنـذـاكـ، وـعـاـشـ إـلـإـنـسـانـ حـالـةـ مـنـ الرـشـدـ وـالـتـقـدـمـ

في جميع جوانب حياته، فلماذا حصل التراجع فيما بعد؟ هذا ما سوف نتناوله في الأسبوع القادم إن شاء الله، لأنه يعنينا.

توكيل المرأة في الطلاق:

ولكي أقف على نهاية موضوع المرأة وأصل فيه إلى نهايته، أذكر مسألة شرعية مهمة، وهي: قد تقول بعض الأخوات: لقد بينت لنا الموضوع وجعلته في منتهى الوضوح، ولكننا بحاجة إلى ما نتسليح به أمام بعض الرجال الذين لا يحفظون للمرأة حقها. فكيف تدافع المرأة عن نفسها في مقابل موروث بائس يستهين بشخصيتها؟ ومن قراءة خاطئة للنص الديني والفتوى؟

أقول: تقول الفتوى: «يجوز أن تشترط الزوجة أن تكون وكيلة عن الزوج في طلاق نفسها، إما مطلقاً، أو في حالات معينة، من سفر طويل، أو جريمة موجبة لحبسه، أو عدم إنفاقه عليها شهراً ونحو ذلك، فتكون وكيلة في طلاق نفسها، ولا يمكنه عزلها، فإذا طلقت نفسها صح طلاقها» ([3]).

نسأل الله سبحانه وتعالى لنا ولكلم التوفيق، والحمد لله رب العالمين.